النقد الذهبي

للكاتب الفرنسي فرنسوا كوبيه

ترجمة محمد العزاوي

حينما بصر « لوسيان دى هيم » بآخر نقد من ذى المائة فرنك يحرفه عصا الغريم تخاذل وانفض عن نضد النرد . وما كان له أن يجلس الى غريمه بعد أن فقد — منذ قليل — ماله الذى سهر على جمعه ليتأهب به لحرب ضروس . وما كان له أن يفعل وقد دارت به الأرض دواراً قعد به عن الوقوف ، فتخاذل ، فارتمى ، فاحتضنه مقعد مريح . ثم انطوى على نفسه وصوب للجمع بصراً غشته سحب الأحزان فهو زائغ العين مهموم ، لقد رأى جما اجتمع لاثم فى هوة أذى ، وموطن فساد ، حيث أفنى شبابا نضر قليلا وذوى . . لقد رأى وجوهاً مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، يزيد انبساطها حظ مؤات وربح كثير . وتلك أخرى تكاد تميز من الغيظ فهى مصفارة ، منقبضة الأسارير ، علا الجبين منها ماء منهمر ، تسايل على الخدود فاستوى على العوارض والأذقان ، فاختلط بدمع الحنق يترى من عيون جحظت خوفاً وطمعاً . . لقد رأى مصابيح شدت للسماء تضفى ثوباً وضيئاً فوق كهف خبيث . قلب وجهه بينها فما بصر إلا بنور ضئيل ينفذ الى ناظريه خلال حجب الغم الفاشية وسحب الحزن المقيم . . . لقد استرد بصره وتراجع قليلاً فانطوى على نفسه وغاب فى أحضان مقعده الصديق ولكن نفسه نازعته للتطلع فأنق السمع ، فبلغ صماخيه رنين الذهب ووسوسة النقود ، يغيبان بين ضحكة نصر مقتضبة ، وحشرجة يأس مغير ، وزفرة مغلوب ختله الحظ فهو حسير كظيم ، وصُعَداء غالب راض حظه بعد أن احتبس فحلت بواديه شآبيب واعدة ورذت ساحته مزنة هاطلة

وذهل عن ذاك بأسره : لقد أقوى جيبه بعد أن كان عامراً يمال يهر العين ويخطف البصر . وخوى وفاضه فما فيه لسد الرمق وإقامة الأود شىء . آماله ولت سراعا فهى غزلان وجلى ، تخاف فتنأى فى دل حبيب الى النفس ، شديد عليها مرير . .

كان الناظر إليه يخاله نائماً وما هو بنائم . ولكنه كان فى سكرة بسبب أمره ، وغشية لا يعللها إلا خلو الوفاض . لقد قلب أمره بين يديه فوجد المجتمع ينبذه — وهو الحسيب ذو الجاه والنشب — فهو طريد ، والعالم يجهله — وهو النسيب ذو الأصل والنسب — فهو شريد ، والأمل يهجره — وهو الطموح ذو المجد — فهو يائس ، والصديق ينكره — وهو الكريم ذو الفضل — فهو وحيد . . . لقد قلب أمره بين يديه فوجد صديقه فى مقعد احتضنه وعطف عليه فى محنته وضرائه — كما احتضنه المداهنون من قبل فى نعمته وسرائه —

فهو عطوف أمين . . . فى موت منج من بؤس ومسكنة لا يرضى بهما نبله ومجده ، وذل ومسغبة يأباهما كرم نفسه وشرف محتده ... فى بندقة أبيه — القائد دى هيم — تحمل إليه ذاك الموت الحبيب كما حملت الملأ فى « زآتشا » الفاصلة موتاً أحمر على يد والده المجيد ...

ألهب التفكير رأسه ، وسعر الهم قلبه ، وكوى الحزن فؤاده ، ثم تداركه السكرى رحمة منه ، فأغفى طرفه فهو نائم سعيد . ولما أن أفاق من غفوته بعد نصف ساعة أو يزيد قليلاً وجد فمه لزجاً من لعاب سال أثناء نومه . فأزاله وتمطى . وكان بحاجة لهواء منعش جديد ينتشل جسمه من وهدة الكسل وذهنه من بلادة وخمود . فقام فى تراخ وكسل . وألفى الساعة لدى الباب تشير — فى هدوء — إلى الثانية عشرة إلا ربعاً . وسار مادّاً يديه يريد الباب . وحينذاك أدرك أن ليلته ليلة الميلاد ، فوجم وجوماً . ذلك لأنه تذكر الماضى بعزه وجلاله ، وشعر به يشرف عليه خلال بياض الأيام وسواد الليالى ، يؤنب ويعاتب ، ثم يهوى هادراً متوعداً . تذكر حين الطفولة وما أصاب من عز كثير . وتمثلت له ليالى الميلاد شامتة ساخرة . واذّكر كيف كان يضع حذاءه الجديد على أنفية الموقد بدار أبيه ليلاً ليلبسه فى الصباح الجميل ... تذكر كيف سحب ذيل النعمى ، وخطر فى شفوف الحرير ، وأين هو من تلك النعمى وذاك الحرير . . إنه لصدى تلك الأيام الخوالى وإنه لطريد عز تليد !

وتقدم لوسيان يريد الباب حين اعترض سبيله شيخ عجوز ؛ لقد كان « درونسكى » أحد أقطاب ذاك اللهو الأثيم ، وأشد جبابرته بأساً وشراً ، وأملأهم وفاضاً وجيباً ، وأجشعهم عيناً ونفساً ؛ وهو برغم ذاك شحيح بخيل : لا أثر للنعمة يبدو عليه ، فهو يلبس سترة من قماش « الضامة » لا يكاد يعفيها ويغفل عنها ، وهو بها قرير العين جذلان

تقدم درونسكى وتمتم ، وشاعت كلماته المبهمة فى أرجاء لحيته شهباء : هلا أقرضتنى خمساً من الفرنكات يا سيدى ؟ أنظر ! . . إنى لم أبرح الندى لخمسة أيام خلون ؛ وما كان لى حتى أربح أو أجد لى مع عددى — السابع عشر — أمراً ، فهو لهاتيك الخمسة لا يزيد ولا ينقص . لك أن تضحك منى كما يتراءى لك ويحلو ، بل لك أكثر من ذلك : لك أن تقطع يدى إذا لم يرقَ السابعُ عشر سلم الزيادة والتضخم قبل أن تدق الساعة أولى دقاتها الاثنتى عشرة

وما كان للوسيان إلا أن يهز كتفيه ، وقد فعل . إذ أنّى له بما يقيم الأود بله ما يرجو العجوز ! ؟ . . وأزاح الرجلَ من طريقه بيسر واجفة دون أن ينطق بكلمة ؛ ودنا من الباب بقدم واهية يقيمها التجلد ، ويثبتها التحامل ، وأدلف إلى البهو الكبير حيث ارتدى سترته وأحكم قبعته فوق رأسه المحموم ، وهبط الدرج بدمع واكف ، وقلب حزين . .

لقد مكث لوسيان بالندى أربع ساعات طوال ؛ كان الثلج أثناءها يتساقط على باريس فيتوج هام البيوت ، ويهب الشوارع بسطا من شفوف جميل . . وبدأ لوسيان يسير الهوينى ، والسكون منعقد فوق رأسه متواصل ، والنجوم ينبثق منها نور خافق متضائل ، والبساط أبيض شف عند أمامه دون حائل ؛ ففرح وابتهج لتلك الطبيعة تزين لأنه تاب

وأصلح من إملاق وفاقة ! وفرح وابتهج لأنه شعر بعبء ثقيل — كان جائعاً في جيوبه — رحل فأراحه ! وفرح أخيراً وابتهج لتلك الراحة تفتح ذراعين مرحبين لتلقفه ثم تغيبه في غيابة الموت ، وبرد الراحة ! . . راحة هي به أولى وأحق ؛ وأولى بجلبها بندقة أبيه المجيد ! . . جعل لوسيان يهيم لغير قصد يرومه أو مكان ينزع إليه . فأنشأ يضرب في شعاب باريس الواسعة . غير أنه لم يسر طويلاً حتى استوقفه أمر أليم نبهه من غشية وأفاقه من غفلة

لقد بصر بفتاة أضناها كد اليوم ونصب السؤال ، مكدودة حيرى فطاف بها الكرى ، وران على قلبها الأمان وحلته السكينة ، فتطلق من همه الأليم وعذابه الواصب . واستكانت إلى الطريق اللاحب واستراحت إليه ، فافترشت طواره ، واتخذت من الجليد دثاراً . . كانت جميلة ساحرة رغم ما ترتديه من أطمار وأسمال ؛ نظيفة ناعمة رغم نومها في الطريق ، بريئة طاهرة فهي بعد طفلة لما تبلغ السابعة

كانت تتوسد ذراعها الأبيض وقد انحسرت عنه أسمالها فهو عار جميل وكان وجهها المشرق الوضيء يطالعك فيبهرك منه جمال هاجع ووديع . أما رأسها فقد مال نحو الأرض في سكينة ودعة . وكان جبينها العريض تكسوه طرة غدافية اللون تدلت من مفرقها واستراحت على أرنبة أنفها الوسيم . وكانت ذراعها الأخرى منبسطة على الجليد كأنما علقت السؤال وأغرمت به ، فهي تنزع إليه أبداً وترجوه دائماً ، وكان قدماها مغمورين في الجليد ، وأخذ حذاؤها الصغير في إهمال عجيب

وأراد لوسيان أن يهبها شيئاً فمد يده لجيبه ، ولكنه ردها حزيناً محسوراً . فقد ادكر أن لا مال معه . ولكن غريزة دفعته فأتى ما أتى من الأمر دون وعي وتدبير . وتقدم من الفتاة يريد حملها وإنزالها بيته حيث الدفء والفرش الوثير . ولكن ما كاد يفعل حتى بهر بصره شيء لامع يقبع في حذائها المخلوع

ودنا بوجه — تشيع فيه ارغبة والرجاء — ليستبين ذلك الشيء ، وما كان إلا نقداً ذهبياً من ذي العشرين فرنكا

لقد وهبه الفتاة كريم . وما من شك أن المحسن سيدة مرت فمنحتها القدر العظيم لتقربه عيناً إذا ما صحت من غفوتها ، وتطيب به نفساً إذا أضحت فتكف عن السؤال ، ويزيد إيمانها بالخير يهمي ليلة الميلاد ! عشرون فرنكا ! ياله من قدر ! أو ليس هو الزعيم بسعادة بضعة أيام ؟! أو ليس هو بشير الراحة لتلك الطفلة اللاغبة !! أو ليس الغنى بذاته لعاثر الحظ ، والنعيم بعينه للساغب المكدود ؟!.. وإنه لعاثر الحظ ، وإنه لساغب مكدود !

لقد كاد يوقظ الفتاة لولا أن ذكر قول ورونسكي العجوز :

— . . . لم أبرح الندى لخمسة خلون . . . بل لك أن تقطع يدي إذا لم يرق السابع عشر سلم الزيادة والتضخم قبل أن تدق الساعة أولى دقاتها الاثنتي عشرة . .

يا لله ! إن هناك فرصة لأمل ! !

وقفز ذلك الشاب — سليل الأصل الكريم والبيت النبيل ، ذو اللقب الحربي والمجد الأثيل — فقد اعتزم في نفسه أمراً ... إنه لم يبلغ الثلاثة والعشرين ربيعاً فهو شجاع جرىء . وهو إذا اعتزم

أمراً لا يقعد به جبن ولا يعوزه مضاء . إلا أنه حين فكر فى الأمر اضطرب جسمه واحمر وجهه ، فقد خالطت الصبوة الحياء فهو فى حيرة من أمره . غير أنه لم يكن يملك لنفسه من الأمر شيئاً . .

لقد ترصد الناس فلم يبصر بشىء يثير الريبة فيوجب الحذر . إن الطريق خال إلا منه وتلك الفتاة فما عليه من بأس أن « يستعير » المال ديناً عليه . وامتدت يده الواجفة « تسلب » الفتاة نقدها العزيز

وحين اطمأن على النقد عدا نحو الندى عجولاً ، ورقى الدرج فى سرعة البرق وبأس العاصفة ، ثم دفع الباب بقبضة قوية آملة حين بدأت الساعة تدق أولى دقاتها الاثنتى عشرة . فرمى نقده على النضد صائحاً

— على السابع عشر !

وفاز السابع عشر . فدفع لوسيان فرنكاته الأربعة والثلاثين « للأحمر »

وفاز الأحمر ! وترك ماله المتضاعف على اللون نفسه ففاز مرة أخرى !

وأقدم على الرهان بالقدر كله مرة وأخرى وثالثة إذ ما عاد يخشى احتباسا لحظه ، أو عثارا لجده . لقد كان يكدس النضار أمامه ، والورق فى سترته . ثم بدأ يشرك « الروليت » مع النرد فكان لها من ماله نصيب رابح دائماً فى تضخم أبداً . وكذلك كان الحظ موافيا مع « الدستة » و « العدد » ومع « العمود »

لقد كان حظا ذهبيا لم يسمع به إنسان !

وقال الناس بسحر ينبعث من عينى الفتى فيأسر الكرة العاجية الصغيرة حين الدوران فى الآلة !

واستطاع لوسيان أن يسترد ماله الذى افتقده أول الليل بعد اثنتى عشرة مرة . ثم فكر أن يسترد أملاك أبيه التى أضاعها فى بضعة أعوام ، فكان يعلى القدر حتى بلغ — مرة — الثلثمائة من النقود الذهبية ذات العشرين فرنكا . لقد أترعت جيوبه بالمال ولما ينقطع فيض النضار فهو يضمه فى جيوب صداره وسراويله ، ويضمه فى منديله وصندوق سيجاره ، وهو يضمه أخيرا فيما يصلح لحمل النضار : كان يلعب دائماً فيربح أبداً . فهو يبعثر ويبذر غير عابىء ولا مكترث ، وهو يتعسف ويجور فيبهظ المغلوبين ويرهقهم ، وهو يرى كل ما تستطيع أن تحتفنه يداه المجدودتان على الخوان فى ثقة واطمئنان ! . .

لقد كان مجدودا سعيدا دون شك ، ومن أدرى منه بمجد وسعد ! ؟ نعم ! ولكن خيال تلك الفتاة البائسة كان يقلق باله ، ويخز قلبه ، ويعكر سعده ، فهو ما يفتأ يذكرها ، وهى ما تنفك تتشبح أمامه

— إنها تنام هناك فهى لم تزل وسنى غارقة فى سباتها الجميل ، ساحرة ناعمة كما تركتها منذ حين ، وإنى لأقسم أن لن تحين الواحدة إلا وتكون الفتاة بصحبتى فى طريقى الى منزلى . فلأنزلنها من نفسى منزلة طيبة . ولأنزلن لها عن سريرى لتنام عليه ولأتعهدنها كابنة ، وأرعاها كأخت ، سوف أمهرها مهراً كبيراً . سوف أحبها ، ثم سوف أحبها !

ولكن اقتربت الساعة واصطرع الأمل ، فالحظ يأتيه بغيث منهمر ، وهو لم يشبع بعد أو يرتوى فما ضر لو صبر واصطبرت معه الفتاة ، إن ربحاً من ساعة ليس بكثير . ومضى ربع ثم ثان وثالث ، وهو لا يزال يبعثر ماله فيأتى له بربح وفير ، ولا يزال يتعسف ويجور فيبهظ ويرهق ، ولا يزال ينثر المال

فى ثقة واطمئنان : وأعلنت الساعة الثانية إلا ربما . إلا أربع عشر . . . إلا ثلاث عشر . وقام صاحب الندى عن « بنكه » الخاسر يقول :

— لقد أفلس « البنك » يا سادة ! كفى لعباً الليلة !

فساء ليل المنذرين ! إذ هم بين خاسر وموتور وحسير . وتدافع الجمع عليه بالمناكب ، ودوا لو ينهشونه ويستردون مالهم السليب ، ولكن لوسيان دفعهم بيديه مفسحاً لقدمه مجالاً بين أقدامهم الزاحفة ومرق من بينهم كسهم مفوق يريد الباب فالدرج وعدا مسرعا شطر الفتاة الوسنى . لقد رآها على نور مصباح الطريق

— حمدا لله فهى ما فتئت هنا ! وأسرع نحوها ثم أمسك بيديها

— كم هى مثلجة تلك الساحرة ! واحتضنها بين ذراعيه فمالت رأس الطفلة للوراء دون أن تصحو فقال :

— ما أجمل نومكم أيها الأطفال الأعزة !

وشدها الى صدره كى يشيع الدفء فيها . وأراد أن يوقظها بقبلة يطبعها على عينها الناعسة ، ذات الأهداب الوطفاء . ولكن .. مالها مسبلتان أبدا ؛ لقد كانت عيناها نصف مغلقتين فشفتا عن عيون صافية . ولكن ... لا حراك بهما !

إنها ميتة وإنها لضحيته ! . بينما هو يكسب الآلاف من الفرنكات ويبعثر الآلاف من الفرنكات كانت « مموّلته » تموت من برد وزمهرير

إنه لم يحتمل الصدمة فأراد الصياح ، ولكن صوته احتبس فى حلقه فآداه ، فأيقظه ذلك من سنة أخذته رحمةً ، ونوم طاف به رأفةً . لقد نام فى مقعده الذى احتضنه أول الليل ، وحل بساحته كابوس ثقيل .

* * *

وبدأ فجر أحد الأيام يفصح فى الشرق خجولا حييا : ضرب خمار السحاب الشف من دونه ، وقام متعثراً فى طيات الليل المدبر ... وبدأ النور يسترق خطاه مترفقاً ، فبدأت الحجرات تضيء من وراء النوافذ

فى ذلك اليوم اغتسل « لوسيان دى هيم » وتناول فطوره وقصد « جماعة أنصار الحرب » ، وأدرج اسمه متطوعاً فى الفوج الافريقى الأول

لقد أصبح الآن لوسيان « ملازماً » بالجزائر صالحا لا يقامر ولا يشرب ، يكسب ما يقوته ويقيم أوده . وفى يوم كان زميل له يسير خلفه فى طريق « كاسبة » المنحدر فرآه يحسن إلى فتاة أسبانية حسناء ، نعم ! لقد كانت حسناء فاتنة ! وكانت تنام فى الطريق !

ودهش الزميل من كرم لوسيان ...

لقد كان بيد الفتاة نقد من ذى العشرين فرنكا . . .

سيد محمد العزاوى
كلية الآداب

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشا